



بداية، الحرب هي الحرب، بما تتضمنه من قتل ودمار وتشريد وتهجير وأعمال سلبية وغير ذلك. والإنسان بطبعه يميل إلى الدعة، والاستقرار، و يؤثر السلامة والطمأنينة على غيرها، ولا يلغاً، في العادة، إلى الحرب إلا مُرغماً، أو عن طمع وحسد وحبٍ للسيطرة والاستئثار. وبالتالي يعدها السواد الأعظم من الناس عملاً سلبياً. ومع ذلك، قد يلغاً الإنسان إليها في بعض الأوقات، وربما قد يكون فيها، على سلبيتها و بشاعتها، في أغلب الأحيان، مصالح وخير للناس.

وعندما نتحدث عن الحرب ونطلق عليها وصف النظيفة، فذلك يعود إلى نسبتها إلى غيرها من الحروب، وليس باعتبارها فعلاً مجرداً، فالحروب تتفاوت في بشاعتها، وحجم العنف المستخدم فيها، ونتائجها الكارثية. ومن هنا نبدأ في إطلاق الأوصاف على الحروب، فنقول: هذه حرب ترقى، في بشاعتها، إلى حدود الجرائم التي تُرتكب بحق الإنسانية، وتلك حرب نظيفة، على الرغم من استخدام القوة فيها، وعلى الرغم من سقوط قتلى، أو حصول دمار، أو ما سوى ذلك، إلا أنها تكون، في نتائجها، في مصلحة أكبر قدر وحجم ممكן من المجتمع، وتكون في وسائلها وأساليبها بعيدةً عن إلحاق الأذى، إلا بقلة قليلة من الذين استخدموها وانخرطوا فيها لإلحاق الأذى بالآخرين.

في الحروب التي تجري على الأراضي السورية اليوم نوعان من الحروب، همجية تُستعمل فيها القوة الغاشمة، على ما قال أحدهم ذات يوم. ونظيفة حققت النتائج التي أطلقت من أجلها من دون أن تكون عشوائية غاشمة، تصيب بشعابها وأدواتها من انخرط فيها ومن لم ينخرط.

في حرب النظام السوري، وروسيا على فصائل المعارضة السورية في غوطة دمشق الشرقية، والتي بدأت بشكل جنوني أسقط مئات الشهداء من المدنيين والأطفال، واستهدفت المباني السكنية والأسواق والمشافي والمدارس والبنية التحتية

شهرين متواصلين تقريباً، وبعد حصار دام قرابة ست سنوات، جاءت نتائج هذه الحرب كارثية، ودفع ثمنها بشكل أساسي المدنيون، تهجيراً قسرياً من منازلهم ومدنهم، بعد تدمير بيوتهم، وبعد استخدام كل أنواع الأسلحة المتطورة على أجساد الأطفال، بما في ذلك المحرّمة دولياً، مثل الأسلحة الكيميائية، والغاز السام، وقنابل النابالم والعنقودية. تمثل هذه الحرب، ليس فقط أفعى أنواع القذارة والـ"الوساخة"، بل ترقى، من دون أدنى شك، إلى مستوى الجرائم بحق الإنسانية التي يجب أن يُحاكم ويُحاسب مرتکبوها. ولكن للأسف، أغفل المجتمع الدولي ومجلس الأمن عيناهما، بإرادتهما وتواطئهما، أو بغير إرادتهما وعجزهما عن وقف هذه الحرب المجنونة القدرة.

وفي وقتٍ كانت تجري فيه الحرب في الغوطة، شنَّ الجيش السوري الحر مدعوماً من الجيش التركي حرباً لطرد مسلحي حزب الاتحاد الديمقراطي من منطقة عفرين في شمال سوريا ضمن عملية أطلق عليها اسم "غصن الزيتون". وقد مرَّ على هذه العملية قرابة شهرين، هي المدة نفسها التي مرَّت على حرب روسيا والنظام السوري على غوطة دمشق. إلا أنه يمكن القول، بكل تجرد، إن هذه الحرب التي نتج عنها طرد المسلمين من مدينة عفرين ومحيطها، يوم 18 مارس/آذار الجاري، كانت نظيفة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

على مدى شهرين من عملية "غصن الزيتون" تقريباً، لم نسمع أن الجيش السوري الحر والجيش التركي قصفاً مشافياً، أو مدارس، أو أحياء سكنية، أو استعمال القوة الغاشمة لطرد مسلحي الحزب من المنطقة. جرت العملية بكل كفاءة واقتدار، وتخطيط عالٍ، وتنفيذ أخذ وقتاً كافياً من أجل تجنب المدنيين أي أثمانٍ لا علاقه لهم بها. حتى المعلومات والإشاعات التي بتها خصوم الجيش السوري الحر والجيش التركي عن قصف مشافٍ أو مدارس أو أحياء سكنية تمّ دحضها بالصوت والصورة، فضلاً عن أننا لم نشاهد أرتالاً من المدنيين يهجرن بيوتهم، ولا دماراً واسعاً في المدينة. ومع ذلك للأسف، صوب المجتمع الدولي الذي يتغنى بالمثلية وحقوق الإنسان والحيادية، مرّات، من خلال مواقفه وإعلامه، على عملية "غصن الزيتون"، وعلى الجيشين السوري الحر والتركي اللذين يخوضانها، ليس لأن هذا المجتمع يريد الإنسان وحقوقه، ولكن لأن مصالحه هي في عدم تمكين الشعب السوري من امتلاك قراره، والتمكن من قدراته وإدارتها باقتدار.

بين الحريين، النظيفة والمجنونة، قيمٌ تحكم أصحاب القرارات في تلك الحروب، فيما تعلو قيم الذين يخوضون الحرب النظيفة لسيادة منطق الحرية والعدالة والمساواة وحقوق الإنسان الفعلية، تكشف وتنكشف قيم الذين ليس لهم هم سوى الاستئثار والاستبداد وتحقيق المصالح الخاصة الضيقة والفؤوية، حتى لو كان ذلك على حساب القيم وكل ما يمت بصلة إلى كرامة الإنسان وحقوقه في الحياة.

المصادر:

العربي الجديد